الفصل السادس

دراسة شكسبير
Doing Shakespeare

- لماذا تعد دراسة شكسبير موضوعاً محورياً في دراسة الأدب الإنجليزي؟
- ما هو الجدل التقليدي حول دراسة شكسبير؟
- ما الأفكار الجديدة في دراسة شكسبير؟
- كيف تؤثر تلك الأفكار على طريقة دراسة شكسبير؟

بعد أن تناولنا في الفصل الخامس فكرة الأعمال الأدبية المرجعية بصفة عامة آن لنا أن نتناول الجدل الذي دار حول تلك النصوص التي تتصف بالمرجعية ونقصد بذلك مسرحيات وليم شكسبير(١٥٦٤-١٦١٦م). وستنصب المناقشات حول أساليب دراسة أعمال شكسبير والتي نادراً ما يعرفها الطلاب.

قلعة شكسبير
Castle Shakespeare

لقد أصبح شكسبير ظاهرة أدبية كاملة يراها كثير من المعلمين والمحاضرين محوراً لدراسات اللغة الإنجليزية بلا منازع وشخصية أدبية يألفها كل من يعرف شيئاً عن الأدب، فها هي الروائية المعاصرة فاي ويلدن Fay Weldon (المولودة عام

١٩٣٣م) ترى في كتابها "رسائل إلى أليس بعد القراءة الأولى لأعمال جين أوستين"Letters to Alice, on First Reading Jane Austen أن أكبر إنجاز للكُتَّاب هو "بناؤهم لبيوت من الخيال" في "مدينة الإبداع" التي يوجد بها "ضاحية للخيال العلمي جميع سكانها من الذكور" و"زقاق القصص الرومانسية" وبنايات عامة وآثار قيمة يراها البعض مملة ويولع بها آخرون". إن استعارة المدينة هذه لهي خير تمثيل للقيمة الأدبية تماماً مثل "تفاضل" بعض الأحياء على غيرها في أي مدينة. كما ترى ويلدن أن في قلب تلك المدينة تقع "قلعة شكسبير التي يراها الناظرون أينما اتجهوا شامخة سامقة تناطح السحاب وتلامس السماء مهيمنة بذلك على كل ما حولها"، وعلى الرغم من "عدم انتظام بناء تلك القلعة الضخمة وكذلك انخفاض مستوى بعض أجزائها" إلا أن ويلدن تقر "بشموخها على مر العصور، فمهما بنى الآخرون من قلاع فلن تضاهي عظمة قلعة شكسبير التي طالما ازدحم روادها وكثر المتدربون على دراسة إسلوب بنائها مراراً وتكراراً ليكتشفوا بذلك طرق جديدة لسبر أغوار وفهم أسرار ذلك المبنى العتيق"، كما تعرض ويلدن الأسباب التي جعلت لشكسبير مكانته وشموخه كمحور للأعمال الأدبية المرجعية، في حين يحاول الآخرون تقليده وعرض أساليب جديدة لدارسة أعماله.

لكن انجاز شكسبير الأدبي يتخطى حدود عالم الأدب فها هو جوناثان بيت Jonathan Bate المتخصص البارز في دراسات شكسبير يعرض لعظمة ومكانة هذا الأديب في كتابه "عبقرية شكسبير" The Genius of Shakespeare قائلاً:

> "إننا نجده يسود الحياة البريطانية كلها فكثيراً ما نجد اقتباسات وآراء من أعماله يومياً في عناوين الصحف والإعلانات... أضف إلى ذلك الشركة المسرحية الوطنية

العملاقة التي تحمل اسمه وتهتم بعرض أعماله باستمرار. وعند قيادتك للسيارة بامتداد طريق "م٦" M6 تجد لافتات تشير إلى المقاطعة الجديدة فترى مثلاً لافتات لتشيرشير Chershire وستافوردشير Staffordshire ووروريكشير Warwickshire. لكن الأخيرة لا تقول ووروريكشير فحسب بل تقول "وروريكشير: مقاطعة شكسبير". أضف إلى ذلك ظهور وجه شكسبير على بطاقات ضمان الشيكات للدلالة على مصداقيتها."

في الأول من يناير ١٩٩٩م اختار مستمعو برنامج "اليوم" Today الذي يتناول الأخبار والأحداث على محطة BBC -الإذاعة الرابعة- شكسبير ليكون "الشخصية البريطانية الأولى في الألفية المنصرمة". من ناحية أخرى نجد أن عبارات شكسبير تملأ اللغة الإنجليزية وهو ما أوضحه الصحفي برنارد ليفن Bernard Levin بقوله: "إذا قلت أنك لم يغفل لك جفن أو لم تتزحزح قيد أنملة أو قمت بواجبك طواعية أو قطبت حاجبيك أو تصرفت بشكل رسمي أو أنك طُردتَ شر طردة أو أن عائدك غير مرضٍ أو أنك أنجزت أفضل ما في شيءٍ ما، فأنت تقتبس عبارات لشكسبير. أما الفيلسوف لادفيدج ويتجنشتن Ludwig Wittgenstein (١٨٨٩-١٩٥١م) فيطلق على شكسبير لقب "مخترع اللغة".

يرى كثير من قاطني المملكة المتحدة أن شكسبير على قدر من الأهمية حيث فرضت دراسته على المناهج الوطنية، وهو المؤلف الوحيد الذي تختاره هيئة المناهج ومواصفات المقررات بالاسم في منشوراتها. يعني ذلك كله أن دراسة طلاب المملكة المتحدة لشكسبير يعد أمراً ضرورياً ومطلباً قانونياً رسمياً، أما في الجامعات

فهو الكاتب الأكثر دراسة في مناهج قسم اللغة الإنجليزية بعد الكتابات النسوية مما يجعله الكاتب الوحيد الأكثر دراسة.

لكن الأمر الغامض هو السبب وراء ضرورة دراسة شكسبير وهو أمر لا يعلمه الطلاب بالطبع، فعندما سأل جون ياندل John Yandell رئيس قسم اللغة الإنجليزية في إحدى مدارس شرق لندن مجموعة من الطلاب في سن الثانية عشر والثالثة عشر عند إعداده لمقال بعنوان "طرق مختلفة لقراءة شكسبير" Reading Shakespeare or Ways With Will عن سبب دراستهم لشكسبير في عامهم المقبل؟ تباينت إجاباتهم على النحو التالي: منهم من قال: " إنه جزء من تعليمنا ودراستنا"، وآخرون قالوا: "لأنه الأفضل" أو "إنك لا تجد من يكتب مسرحيات أفضل منه"، وكذلك منهم من قال: "عندما عرضت مسرحياته أجمع من شاهدوها على عظمته، لكننا لا ندرك سبب ذلك لبُعْد الشُقَة بيننا وبينه الآن"، وفريق قال: "علينا أن ندرسه خوفاً من الاختبارات ولأن المسرحية قد كتبت باللغة الإنجليزية". تتشابه تلك الإجابات على اختلافها، فعندما تقول أنك يجب أن تدرس شكسبير للاستعداد للاختبار أو لأنه جزء من المنهج الدراسي أو لأن مسرحياته بالإنجليزية فإن ذلك يعني أنك مجبر على دراسته، أما الطلاب الذين قالوا بأنه الأفضل من قبل دراستهم له أو لإعجاب أسلافهم بأعماله فإنهم يقرون أنهم مجبرون على دراسته لأن شخصاً آخر هو الذي أخبرهم بذلك فأعماله محل ثقة ودراسته أمر مسلَّم به، وعندما تحاور ياندل مع المعلمين أجاب أحدهم:

"عندما يعبر الصغار عن عدم قبولهم دراسة شكسبير
أقول بـــصراحة أني: "أفهـــم شـــعورهم ولا أردد
كالببغاء أن سبب دراسته يرجع لعبقريته". وكـــثيراً

ما يتردد على مسامعي: "لماذا يجب أن ندرس أعماله؟" فيجيبهم لسان حالي: "ليس لدي أي إجابة فلقد اضطررت لذلك وها أنتم مثلي سائرون على الدرب.... لا يوجد أي رضا عن تلك الدراسة."

كما لوحظ اشتراك عدد من المعلمين مع زميلهم هذا في نفس الشعور بأن دراسة شكسبير أمر خارج عن إرادتهم.

يظهر لنا نفس السؤال مرة أخرى: "لماذا يجب دراسته؟" لابد أن هناك أسباباً وجيهة غير أننا "مضطرون لدراسته". في الحقيقة حاول كثير من النقاد والأكاديميين الإجابة على ذلك السؤال وقد أظهرت بحوثهم أن دراسة شكسبير كغيرها من قضايا الإنجليزية محل خلاف كبير لم يصل فيه أحد إلى تبرير يمكن توضيحه وقبوله من جانب الطلبة. يرجع ذلك الخلاف إلى منتصف السبعينيات من القرن العشرين عندما بدأت عملية مراجعة طرق دراسة "الإنجليزية التقليدية"، ولأن شكسبير كان (ولا يزال) محور دراسة مناهج الإنجليزية، فإن الجدل الدائر حول ضرورة دراسته أدى إلى إثارة عدد من القضايا. فانقسمت الآراء إلى معسكرين: معسكر التقليديين ومعسكر "محطمي الأصنام الجدد" New Iconoclasts كما يسميهم جوناثان بيت ("محطم الأصنام" لفظ يطلق على من يهاجم ثوابت و جوامد الأفكار) بينما يسمي كثير من معارضي دراسة شكسبير أنفسهم بالماديين الثقافيين. وكما ترى لا يوجد رأي محايد أو نقطة التقاء بين المعسكرين لاختلاف منطلقاتهم الفكرية التي تحدد وتفسر مواقفهم. وسوف يعرض باقي هذا الفصل لتلك الخلافات ثم يُعرِّج على إثرها إلى قضايا أخرى تتعلق بدراسة الإنجليزية.

دراسة شكسبير: رأي التقليديين

Studying Shakespeare: the Traditionalists' Argument

كتب بن جونسون Ben Jonson (١٥٧٢-١٦٣٧م) صديق شكسبير عنه أنه "رجل لكل العصور وليس عصراً واحداً". ذلك هو الشعار الذي يرفعه معسكر التقليديين الداعين لدراسة شكسبير، حيث يرى هؤلاء أن مسرحيات شكسبير هي أفضل النصوص الأدبية التي يجب دراستها لأسباب ثلاثة هي:

- قيمة مسرحيات شكسبير الفنية (أو الجمالية)
- القيم التي تشتمل عليها المسرحيات
- الصبغة العالمية لأعمال شكسبير

تمثل مسرحيات شكسبير لديهم ذروة نضج الفن الأدبي التي لا تضاهى في القيمة الجمالية، وهناك أمثلة كثيرة تدعم ذلك الاتجاه. أحدها البرنامج الإذاعي "اسطوانات الجزيرة الصحراوية" Desert Island Discs على محطة BBC الرابعة والذي يفترض أن ضيوفه على جزيرة مهجورة وبصحبتهم ثمانية شرائط تسجيلية من اختيارهم ومادة ترفيهية والإنجيل وكتاب آخر من اختيارهم بالإضافة "للأعمال الكاملة لشكسبير" لأنها الأفضل. وقد يصادفك كتاب "دراسة شكسبير" Studying Shakespeare لكاثرين ارمسترونغ Catherine Armstrong وجراهام اركن Graham Arkin وهو عبارة عن دليل مدرسي يحاول الإجابة على سؤال: "لماذا ندرس شكسبير؟" بقوله: "يكفينا الحوار الافتتاحي لمسرحية "هاملت" للإجابة على هذا السؤال. كما يقدم الكاتبان تحليلاً نقدياً لتلك الفقرة الافتتاحية مع تكرار نفس العملية مع مسرحيات "كما تشاءها" و"الملك لير" وكأن لسان حالهما يقول: حَسبُك قراءة فقرة واحدة لشكسبير لتقتنع بأنه أفضل الكُتَّاب الذين تستحق

أعمالهم الدراسة دون غيرهم". وعندما تعرض الكاتب الصحفي جيمس وود James Wood لخاتمة مسرحية "الملك لير" في مقالة لصحيفة الجارديان Guardian كتب فيها: "من الصعب مشاهدة عرض مسرحي "للملك لير" دون أن تسمع نحيب الجمهور مع مشهد الختام". إن شكسبير هو الأفضل بالنسبة لوود وأمثاله.

كما يؤمن أصحاب المعسكر التقليدي بأن شكسبير هو أفضل مَعلِّم للقيم والأخلاق، وأحياناً ما يأخذ ذلك شكل بلاغة شديدة كالمدح المبالغ فيه والعبارات الرنانة. نرى ذلك واضحاً في الكلمات التي أوردها الشاعر والناقد الأمريكي رالف والدو إميرسن Ralph Waldo Emerson (١٨٠٣-١٨٨٢م) في كتابه "العظماء" Representative Men (١٨٥٠م) عن شكسبير:

> "اخبرني عن خلق أو فضيلة أو ذوق رفيع أو فلسفة أو دين أو سلوك حياتي لم يقرُّه أو يحدده شكسبير؟ عن غموض لم تكشفه معارفه؟ عن أي علم أو معرفة يجهلها ؟ عن مَلِك لم يعلمه شكسبير فنون الحكم...؟ عن حسناء لم تجد فيه جمالاً ورقةً أفضل مما لديها؟ عن عاشق فاقه في الحب؟ عن حكيم لم يقابله؟ عن نبيل لم يتخلص على يديه من سوء أدبه؟"

إن شكسبير هو عنوان الحكمة ومصدر الحقيقة للسلوك البشري فاضِله وفاحِشه، حيث يرى أنصار ذلك المعسكر أن وظيفة الأدب هي تعليم الناس القيم والمُثُل، والتي تعد أعمال شكسبير أعظم تجسيد لها. يعني ذلك أن دراستك

لشكسبير ليست مجرد دراسة أعمال كاتب، لكنها دراسة "للنفس البشرية" في أسمى معانيها.

من اللافت للنظر أن من يخالفونهم في نظرتهم للقيم يرون قيمهم الأخرى مجسدة في أعمال شكسبير أيضاً، فمثلاً نجد كيرنان رايان Kiernan Ryan يصف في كتابه الذي اختار اسم شكسبير عنواناً له كيف أن " مسرحيات شكسبير تشحذ هممنا لخلق عالم بلا انقسامات أو نزاع"، وأنها ذات طابع ثوري يعمل على قلب النظم الموجودة وإصلاح فسادها. وعلى النقيض من ذلك، نجد جوناثان بيت يستشهد بما قام به السياسي البريطاني اليميني مايكل بورتيلو Michael Portillo عندما اقتبس من مسرحية شكسبير "ترويلس و كرسيدا" Troilus and Cressida في خطاب له عام ١٩٩٤م ليفسر كيف "يقوم المجتمع على سلسلة من العلاقات تتصف بالاحترام والإحساس بالواجب من قمة النظام إلى أسفله" مهاجماً الذين أصبحوا "متهكمين على هيئات بريطانيا القديمة وقيمها وتقاليدها" وبذلك يدافع عن النظام الموجود بكل أقسامه. من هنا نجد أن كلا المثالين السابقين يؤكدان على القيم "العالمية" التي تتجسد في مسرحيات شكسبير.

يقودنا ذلك إلى السبب الأخير الداعم لدراسة شكسبير وهو التأثير الواضح لمسرحياته على الجميع مما يمنحه أهمية عالمية ويجعله صاحب رسالة يبلغها للناس أجمعين في كل زمان ومكان، فيؤمن أنصار ذلك الاتجاه بأن كل من يشاهد أو يقرأ عملاً لشكسبير يدرك أنه المَعْنيّ الوحيد به، فها هي الشاعرة والكاتبة الناشطة الأمريكية مايا أنجيلو Maya Angelou (المولودة عام ١٩٢٨م) تصف في محاضرة لها عام ١٩٩٠م عشقها لشكسبير والناتج عن نشأتها في جنوب الولايات المتحدة حيث الفقر والعنصرية وشعورها أن شكسبير يعنيها هي بخطابه لدرجة أنها آمنت أن "وليم شكسبير كان امرأةً سوداء". لذا فتلك الصبغة العالمية لأعمال شكسبير

هي التي تدعم وجهة نظر التقليديين لدراستها، فمسرحياته تعبر عن المشاعر والأفكار والآمال والمخاوف الأساسية لكل بني البشر على ظهر البسيطة.

يمثل شكسبير لهؤلاء نجماً يختال جمالاً وبهاءً، ويتميز ببعده واستقلاليته عن الأرض ويسمو عن دونيتها ليعجب به كل من يراه، فهو يهدينا كما يهدي النجم الساطع مجموعة من البحارة المسافرين في ليل بهيم، ويمنحنا القيم الأساسية التي لا سبيل لتعلمها وتمثلها إلا من خلال دراسة أعماله.

استخدام شكسبير: رأي المادية الثقافية
Using Shakespeare: Thecultural Materialists' Argument

يعارض أنصار المادية الثقافية Cultural Materialism من نقادٍ ومفكرين ما يراه التقليديون، حيث يهتم الناقد منهم أساساً بدراسة أثر العوامل المادية كالظروف الاقتصادية والصراعات السياسية على النص وإنتاجه معتبراً أن أي نص يمكن أن يُنبيء بتلك الظروف المادية.

كما يعتقدون بأن كل الأعمال الثقافية (ونخص بالذكر هنا مسرحيات شكسبير) تهتم بالسياسة والعالم من منطلق اهتمامهم بالسياق الذي كتب فيه العمل (يكشف ذلك عن الاتجاه الخارجي الذي تناولناه في الفصل الرابع حيث يدرس النقاد ما وراء النص من أفكار وعوامل خارج النص الأدبي).

ويرى هؤلاء في شكسبير —الأعمال والمنظومة التعليمية على حد سواء— نتاجاً للظروف السياسية والثقافية والاقتصادية آنذاك وليس عَلَماً سامياً على الجمال والحكمة والقيم. ففي حين يرى التقليديون في شكسبير النجم العالي الزاهي، يرى

الماديون الثقافيون مسرحياته كأشجار تنمو من التربة السياسية لبيئة ما، لذا يرفضون تماماً كل ما نسبه "التقليديون" لمسرحيات شكسبير.

هل شكسبير هو الأفضل؟
Is Shakespeare' Simply the Best'?

في البدء يرفض الماديون الثقافيون الرأي القائل "بالقيمة الجمالية" للعمل الأدبي وبذلك ينكرون أن شكسبير هو "الأفضل"، بالإضافة لذلك يتساءلون: أفضل ممن؟ ومَنْ الذي قرر ذلك؟ ولماذا؟ فتبلور موقفهم في رأيين: أولهما أن شهرة شكسبير ليست نتاجاً لما يحيط به من "هالة نور" بل نتاجاً لظروف تاريخية، وثانيهما أنهم يعقدون مقارنة بين شهرة شكسبير وشهرة كُتَّاب آخرين للوقوف على عناصر المصادفة التاريخية وراء ذيوع شهرة كاتب ما.

إن قصة تحول شكسبير الكاتب المسرحي ليصبح شكسبير المنظومة لهي قصة طويلة تسردها مصادر عدة بالتفصيل (انظر ص٢١٠). فعلى الرغم من نجاح شكسبير ككاتب درامي، إلا أنه لم يكن بارزاً في عصره، فمثلاً عندما توفي عام ١٦١٦م تم دفنه في هدوء على عكس صديقه وندّه الأدبي بن جونسون الذي توفي عام ١٦٣٧م وشيعه جمعٌ غفير إلى مثواه الأخير في كاتدرائية القديس بولس. يرى كثير من المؤرخين أن شهرة شكسبير لم يكن لها ذلك الشأن حتى عام ١٦٦٠م عندما أغلقت المسارح في لندن ثم في باقي أنحاء انجلترا أثناء الحرب الأهلية وإعلان الجمهورية (١٦٤٢م-١٦٦٠م) لِما رآه أوليفر كرومويل Oliver Cromwell (١٥٩٩-١٦٥٨م) الحاكم وكذلك أعضاء برلمانه في فن المسرح من مخالفة للأخلاقيات، لكن عندما أعيد افتتاح المسارح عام ١٦٦٠م اضطر أصحابها للجوء لأعمال من الماضي كمسرحيات شكسبير نظراً للنقص الحاد في الأعمال المسرحية آنذاك، فما كان منهم إلا أن لجؤوا إلى عدد كبير من طبعات مسرحيات شكسبير لعرضها على المسارح. لكن جاري تايلور Gary Taylor يذكر في كتابه "إعادة

اختراع شكسبير" Reinventing Shakespeare –وهو دراسة شهيرة تتناول أسباب تغير النظرة لأعمال شكسبير– أنه ما بين عامي ١٦٦٠ و١٧٠٠م تم نشر حوالي ثلاثين طبعة لمسرحيات كتبها معاصرون لشكسبير أمثال بومون Beaumont وفليتشر Fletcher مما يوضح أن النظرة لشكسبير لم تكن على أنه الكاتب المسرحي الأكثر أهمية بأي حال من الأحوال، بل على العكس بدأ نجمه يلمع بنهاية القرن السادس عشر وبداية السابع عشر. وبزيادة الطلب على سوق الكتب زادت طبعات مسرحيات شكسبير مثل طبعات أعوام ١٧٠٩ و١٦٢٥ و١٧٣٣ و١٧٤٧ و١٧٦٥ و١٧٦٨م، لذلك اعتُبِرَ إعداد مسرحيات شكسبير للنشر علامة على جدية ذوي الطموحات الأدبية.

مع بداية القرن التاسع عشر ساعد نمو الحركة الرومانسية Romantic movement في الفنون على رعاية ودعم شهرة شكسبير، حيث اعتبر الرومانسيون "القوة المبدعة" في غاية الأهمية وكان شكسبير بالنسبة إليهم هو النموذج المحتذى به في الإبداع، نظراً لزيادة الإقبال على قراءة أعماله وهيمنة شخوصها على حياتهم. وكما تقول جين أوستين (١٧٧٥–١٨١٧م) على لسان هنري كروفورد Henry Crawford –إحدى شخصيات رواية "حديقة مانسفيلد"–: "من السهل أن يتعرف المرء على شكسبير بسهولة دونما يدرك لذلك سبيلاً لأنه جزء من دستور كل إنجليزي فتتغلغل أفكاره ومناقبه في كل بقاع الأرض ويتآلف المرء معه بالفطرة دونما عناء" وكأن كروفورد يردد ما قاله ت.س. إليوت (انظر الفصل الخامس) من أن شكسبير موجود في عظام وجينات كل إنجليزي. ولقد أخذت صورة شكسبير في التوسع كمحور لدراسات الأدب عامة والإنجليزي منه بصفة خاصة عندما توسعت الإمبراطورية البريطانية وأرست دعائم هيمنتها على بلدان كثيرة فأخذت معها

شهرة شكسبير متوسلة بها لتحقيق أطماعها الاستعمارية كما أوضحنا في الفصل الأول، مما يدل على أن نصوص مسرحيات شكسبير أصبحت معياراً للحكم على المرء بأنه "إنجليزي" موالي للإمبراطورية البريطانية أم لا. ومع بداية القرن العشرين أصبح شكسبير رمزاً قومياً وعَلَماً مقدساً يدل على ذلك ما كتبه الشاعر البريطاني سوينبرن Swinburne (١٨٣٧- ١٩٠٩م) في عام ١٩١٠م:

"إن كلمة شكسبير توحي بدلالات أعظم من أي
اسم آخر على ظهر الأرض... ليس فقط كتاج المجد
على رأس إنجلترا بل كتاج للمجد على جبين
البشرية جمعاء لأن هناك آدمياً وُلِدَ اسمه وليم
شكسبير."

لعب استخدام شكسبير لأغراض الدعاية الوطنية إبان الحربين العالميتين دوراً كبيراً في تأكيد شهرته كأعظم كاتب إنجليزي.

منذ ذلك الوقت وشهرة شكسبير تزداد وتتضخم ككرة ثلج سريعة الدوران، فحاول الناس جاهدين التودد والتقرب من ذلك العَلَمْ و"المنظومة" لإعطاء أنفسهم قيمةً أدبيةً نظراً للاتفاق "الجماعي" على شهرة شكسبير التي طبقت الآفاق. فإذا أراد مدير مسرح طموح أن يظهر موهبته الرفيعة فما عليه إلا اللجوء "لأصعب" التحديات فيعرض المسرحيات "العظيمة" والتي يقصد بها أعمال شكسبير بالطبع، كما يؤرخ الممثلون لنجاحهم الحقيقي عندما لعبوا أدواراً لشخوص شكسبيرية ، أضف إلى ذلك حرص المسلسل التليفزيوني "درب النجوم" Star Trek على عرض حلقة عن شكسبير ليكتسب صفة الجدية والقيمة الفنية، وكذلك دور العرض السينمائي التي دأبت على إنتاج أفلام لأعمال شكسبير

لإثبات جدارتها الفنية أو حتى عرض القصة بتصرف لإظهار ارتباطها بالفن العريق. كان لكل ذلك أثره الكبير في اعتقاد السواد الأعظم من الناس في "عظمة" شكسبير وأفضليته على سائر الكُتَّاب.

لكن المدقق للنظر في تاريخ شهرة شكسبير قد يتفق مع الماديين الثقافيين في أن أفضلية شكسبير لا تنبع من جودة أعماله، ولكن العامل الأساسي فيها هو المصادفة التاريخية وخاصة إذا ما قورنت بأعمال كُتَّاب آخرين لا يقلون "عظمة" عن شكسبير ولا ينقصهم سوى الدعم الذي استمده الأخير مما "لإنجلترا" و"الإنجليز" من أبهة ومَنَعة على مدار أربعمائة عام، وشواهدهم على ذلك كثيرة، أحدها أن لسوفوكليس Sophocles (الذي عاش تقريباً من عام ٤٩٦ لعام ٤٠٦ قبل الميلاد) أعظم الأثر في فن التراجيديا، إلا أن سبع مسرحيات فقط من قرابة المائة وعشرين مسرحية هي الباقية من أعماله. أما في أسبانيا فلقد فاقت مسرحيات لوب دي فيجا Lope de Vega (١٥٦٢-١٦٣٥م) ما كتبه شكسبير من إبداع فني رغم معاصرته له ومخاطبته لجمهور مشابه لجمهوره كما تمتعت أعماله بشهرة كبيرة، إلا أن تدهور حال أسبانيا سياسياً حال دون ترجمة أعمال لوب للغات أخرى. ويضيف جوناثان بيت في كتابه "عبقرية شكسبير": "لقد تُرجِمَت أعمال شكسبير كلها إلى عدد من اللغات في حين تقل نسبة ما ترجم من أعمال لوب المعروفة للإنجليزية عن عشرة في المائة" مُرجعاً سبب أفول نجم لوب دي فيجا "ككاتب عالمي عظيم" إلى انهيار أسبانيا سياسياً، فبينما كانت شهرة شكسبير آخذة في الازدهار بتوسع الإمبراطورية الإنجليزية استعمارياً، كان لوب دي فيجا يغيب في عالم النسيان.

هل يُعَلِّم شكسبير القيم؟
Does Shakespeare Teach Values?

يعارض الماديون الثقافيون زعم التقليديين القائل بأن أعمال شكسبير تسمو بالقيم العالمية الراسخة التي تناسب البشرية جمعاء على اختلاف الأزمنة والأمكنة لأن السياق الزماني والمكاني للعمل الأدبي في غاية الأهمية بالنسبة لهؤلاء الماديين فهم يرون عدم وجود عمل عظيم "لذاته" لكن تلك العظمة لها أسبابها. لذلك يصوب الماديون الثقافيون سهام شكوكهم لأي عمل شهير سائلين عن سبب شهرته في زمن ما أو لحظة تاريخية ما ويضربون مثالاً على ذلك بشهرة مسرحية "هنري الخامس" التي نالت حظاً وافراً من الشهرة خارج بريطانيا إبان الحرب العالمية الثانية نظراً لاحتفالها بالانتصارات البريطانية في الأوقات العصيبة. وفي حين يرى التقليديون أن شكسبير يتحدث لكل البشر، يهتم الماديون الثقافيون بوجود عوامل كثيرة تحدد فعالية وتأثير النص الأدبي كالطبقة الاجتماعية والأصول العرقية والجنس والعمر والتعليم...الخ فلا يوجد نص لديهم يخاطب البشرية جمعاء بنفس الشكل، بل قد لا تجد طائفة ما في النص أي رسالة لهم وقد لا يعنيهم النص برمته في شيء.

لا يعجب الماديون الثقافيون من إمكانية أن يجد الحزب اليساري والحزب اليميني في مسرحيات شكسبير ضالتهم المنشودة، فلا يوجد تفسير واحد "صحيح" لها لأن الكل يقرأ المسرحية وفق ما يريد وما يحمله من نظريات وعقائد. لذا يشكك الماديون الثقافيون في أن تحمل المسرحيات أي معنى أصيل أو قيمة عالمية تُبتَغى، بل تستخدم المسرحيات إما لإعلاء قيمة ما أو أن تعكسها وفق الأسلوب الذي يتناولها به القارئ. فإذا كان الأمر كذلك فإن تيرانس هوكس Terence Hawkes –وهو كاتب شهير مناصر للمادية الثقافية– يؤكد في كتابيه الرائعين

"قناع شكسبير البالي" That Shakespearean Rag و"المعنى في أعمال شكسبير"لا Meaning by Shakespeare على عدم وجود شكسبير "حقيقي" وأن مسرحياته ليست "المصدر الأمين والرسول المبلغ للحق من قِبَل الله" لأن شكسبير مجرد أداة ثقافية لإقناع الناس بمجموعة من الأفكار مما يعطي شكسبير صفة المرجعية المؤثرة كمنظومة ثقافية بحيث أيك إذا أردت إقناع شخص برأيك فما عليك إلا اللجوء لشكسبير لتبرهن على صدقك.

ومن الجدير بالذكر أن ما أشار إليه هوكس من أن فكرة شكسبير كمنظومة أدبية قد تجعل من المسرحيات شفرات وطلاسم ، ويشبِّه جاري تايلور شكسبير في كتاب "إعادة اختراع شكسبير" بحفرة سوداء معتمة:

"لم يعد لشكسبير القدرة على أن يشع ضوءاً بازغاً
من عند نفسه لإنحسار طاقته من محيط جاذبية
شهرته فنجد فيه ما نريده نحن أو ما تركه الآخرون
بعد قراءته، بمعنى أنه يمنحنا قيمنا وليس قيمه هو."

كما يرى تايلور أن كل ما قام به الأكاديميون والمعلمون والنقاد والطلاب والمخرجون والممثلون ومنتجو الأفلام السينمائية وغيرهم ممن قاموا بدراسات حول شكسبير قد طمس إنجاز شكسبير الأصلي ليحل محله عرضاً لقيمهم. وقد يبدو أحياناً أن شكسبير جزء لا يتجزأ من مجتمعنا للحد الذي لا نحتاج معه قراءة مسرحياته، فحسْبُك مثلاً مشاهدة فيلم عن "روميو وجولييت" لتعرف محتوى المسرحية. وعلى الرغم من شعورك بمعرفة المسرحية معرفةً تامةً، إلا أن ما وصلك منها ما هو إلا تفسير الآخرين لنص المسرحية وتأكيد المخرج على عدة موضوعات وقضايا تبدو مهمة من وجهة نظره. وإذا كان الأمر كذلك، فأنت تتعلم قيم

المخرج وليس مسرحية شكسبير وإذا ما قرأت النص الأصلي يوماً فسيصعب عليك جداً تفسيره بإسلوب مغاير لأسلوب ذلك المخرج الذي انغرست آراءه في عقلك، لذلك تلعب كثرة الكتابات الخاصة بشكسبير والأفكار التي توحي بها المسرحيات وتسود الحياة اليومية للمجتمع الإنجليزي دورها البارز في الصعوبة البالغة التي يجدها من يحاول قراءة النص الأصلي للمسرحية بمعزل عن كل ما قيل وكُتب عنها.

من أحد الأمثلة البارزة على مثل ذلك استخدام شكسبير كرمز وطني حيث انهالت المدائح والمناقب على شكسبير الذي برع في وصف الروح "الإنجليزية" (ومن العجيب ذكر ذلك في نفس الوقت الذي يوصف فيه شكسبير على أنه "عالمي") وكثيراً ما يرتبط ذكر شركة شكسبير الملكية بالبلاط الملكي الإنجليزي كممثلٍ للسلطة العليا في المملكة المتحدة. ولنأخذ حواراً من مسرحية "ريتشارد الثاني" (المشهد الأول من الفصل الثاني) حيث يقول واصفاً إنجلترا:

"هي العرش الملكي والجزيرة ذات الصولجان،
هي الأرض العظيمة وكرسي عرش الكون،
هي جنة الدنيا، بل هي الفردوس"

لكن هذه الأبيات كثيراً ما فُسِّرت خارج سياقها الذي قيلت فيه فاستُخدِمَت في الإعلانات والأحاديث الإذاعية للأحزاب السياسية لزيادة الشعور بالانتماء الوطني، حيث ساعد الإعجاب بشكسبير على خلق روح جماعية وهوية مشتركة تؤدي معها كراهيتك له إلى اعتزالك الجماعة وافتقارك لهويتك "الوطنية". لذلك يُعد تدريس شكسبير كشاعر وطني بمثابة المدخل الأساسي لفكرة الدارس عن "الهوية الإنجليزية". وقد يسترعي انتباهك عند مطالعة الكثير من شروح أعمال شكسبير كثرة استخدام الضمير الجمعي"نحن" كقولهم: "نتعلم من دراستنا لأعمال

شكسبير..." أو قولهم: "حسبنا قراءة..."، وعلى الرغم من المباشرة التي استخدم بها الضمير الجمعي "نحن"، إلا أنه يقتضي وجود أناس مختلفين عنا يمثلهم الضمير "هم" وكان شكسبير محك ذلك التمييز. من الحكمة إذن أن نتساءل عن المقصودين بالضمير "نحن": أهم المعلمون أم الطلاب أم الأكاديميون أم السلطة السياسية؟ وعما يمثله ذلك الضمير لك عزيزي القارئ، ولا يعني ذلك بأي حال من الأحوال أن "نحن" تدل دائماً على علية القوم بل يرى جوناثان بيت في كتابه "عبقرية شكسبير" أن استخدام شكسبير قد اتخذ شكل القوة الهادمة المضادة لنفوذ الصفوة ويضرب بمسرحية "العاصفة" ومثالاً على ذلك التي أنتجها الكاتب أيميه سيزر Aime Cesaire (المولود عام ١٩١٣م) وقدمها من وجهة نظر شخصية العبد (كاليبان Caliban) منذ عام ١٩٦٨م على حين قدمت شخصية (بروسبيرو Prospero) "العجوز الحكيم" على أنه سيدٌ مستبد مما يُظهر شكسبير على أنه معارض للعنصرية ومندد بتجارة الرقيق في أوروبا قديماً.

هناك جانب آخر من استخدام شكسبير ليعكس قيم بعينها ألا وهو الرابط الذي يجمع الطبقة الاجتماعية والمستوى التعليمي بشكسبير مثل ما كتبه الناقد دافيد هورنبروك David Hornbrook من أن معظم الناس يجدون في شكسبير "تجسيد للغطرسة الاجتماعية" ومن يستمتع بدراسة مسرحياته من الطلاب (خاصة في المدارس) هم في الغالب "الأكاديميون" و"المثقفون من الدرجة الأولى"، ولأن هؤلاء غالباً ما يكونون قلة فإن ذلك يعد مدعاة لرؤية شكسبير على أنه يخاطب علية القوم فقط. أما أثر شكسبير على نظام الاختبارات فكان محورياً حيث يعد محك النجاح والفشل والثواب والعقاب والصواب والخطأ، أي أن الإلمام بشكسبير هو بطاقة القبول في جماعة ما، الأمر الذي يجعل تشبيه فاي ويلدن له بالقلعة التي

تميز وتفرق بقدر ما تجمع وتوحد تشبيهاً بليغاً لما تمنحه القلعة لساكنيها من الأمان وما تبثه في نفوس مَن خارجها من تهديد وفرضٍ للقيود، فكثيراً ما اعتاد حكام العصور الوسطى على بناء القلاع للدلالة على التملك والمنعة، ولبَثّ الرعب في نفوس رعاياهم وإجبارهم على الخضوع لهم.

هل لشكسبير طابع عالمي؟

Does Shakespeare Have a Universal Appeal?

يوجِّه الماديون الثقافيون شكوكهم للفرض الثالث للتقليديين القائل بأن لشكسبير طابع عالمي، ولقد ذكرنا آنفاً ما اعتقده الصحفي جيمس وود عندما قال: "من الصعب مشاهدة مسرحية "الملك لير" دون أن تسمع نحيب الجمهور". ويرد عليه جون ياندل بقوله "إن الحقيقة هي سهولة وجود عروض للمسرحية دون أن يجهش جمهورها بالبكاء الآن أو في أي وقت آخر، " فهل يفهم كل من يقرأ أعمال شكسبير مغزاها للوهلة الأولى بغض النظر عن التأثر الشديد بها؟ يظهر ذلك من كثرة الشروح التي قدمت للمساعدة على فهم وتدريس مسرحياته في المرحلة الجامعية والثانوية كما هو متوقع في مقررات القبول أو ما بعدها وخير مثال على ذلك سلسلة "شكسبير للمدرسة الثانوية: تدريبات صفية" Secondary School Shakespeare: Classroom Practise و التي حررها ريكس جيبسون Rex Gibson مدير المشروع الفعال "تدريس شكسبير في المدارس" والذي يهدف إلى بعث شكسبير للحياة من جديد بتدريسه في المدارس. وتحتوي السلسلة على مقترحات وأفكار لتدريس المسرحيات بأسلوب لا يتعرض لشكسبير ذاته وآرائه وقيمه، بل التعامل على أن "شكسبير شخصية غير محايدة" و"يجب البدء في دراسته مبكراً"

إضافة إلى الإجابة على سؤال: "كيف نبدأ دراسته؟" ومن السهل عليك ملاحظة استخدام كلمة "شكسبير" كفعل في معظم الأحيان وقلما تُستخدم كاسم كما هو واضح من المثال الأخير الدال على دراسة المسرحيات، وينتهي بنا الأمر بالدعوة للتحيز لشكسبير وكأن لسان حالنا يقول: "ثق بالطلاب وثق بشكسبير" الأمر الذي يتحول شكسبير معه إلى ما يشبه "ديزني" أو "كوكاكولا" وليس مجرد كاتب مسرحي عمر أعماله أربعة قرون. هنا تظهر لنا المفارقة إذا افترضنا أن رسالة شكسبير عالمية لكل البشر، حيث إن كل الجهود التي بذلت لتلميعه وتسويقه قد ذهبت سُدى. لكن لا يعني ذلك أنك يجب أن تجد كل ما تدرسه سهلاً، بل على العكس إذا لم تجده كذلك فإن رسالته قد لا تكون عالمية تخاطب كل البشر.

يخلص الماديون الثقافيون من ذلك باستحالة الوصول لشكسبير "حقيقي" عطفاً على عدم حياديته أو مباشرته كمنظومة تعليمية مشيرين إلى استخدام اسم شكسبير وأعماله كما رأينا أكثر من أي أديب آخر وأي سلسلة أدبية أخرى لخدمة أغراض هي في مجملها أغراض غير أدبية، فلم يكن النظر إليه من قبل على أنه الأفضل وإنما لعبت المصادفة التاريخية الدور الرئيس وراء خلود مسرحياته.

أثر تلك التوجهات على دراسة شكسبير

The Affects of this Debate on Studying Shakespeare

تؤثر المناقشات والاتجاهات السابقة بشأن شهرة شكسبير وأسلوب فهم مسرحياته تأثيراً مباشراً على دراستك له، فتميل لجنة تخطيط المناهج بالمملكة المتحدة إلى الأخذ برأي التقليديين في شكسبير فمثلاً توصي تلك اللجنة بدراسة الطلاب "للموضوعات والمناخ الزماني والمكاني والشخوص والأسلوب الأدبي"

للمسرحيات، لذلك انصبت دراسة المسرحيات على الحبكة والشخوص والموضوعات كما يظهر في أي شرح مطبوع للمسرحية: فتدرس الحبكة لسهولة فهمها والشخوص لافتراض أن شكسبير مازال يخاطبنا على لسان شخوصه علاوة على دراسة الموضوعات ليس فقط لأن الأسلوب التقليدي "لدراسة الإنجليزية" يقوم على إيجاد "الرسالة" التي يحملها النص، ولكن أيضاً لأن موضوعات شكسبير يغلب عليها الطابع العالمي الذي يكشف عن "قيم عالمية".

على الرغم من ذلك نجد أن وجهة نظر الماديين الثقافيين تجذب انتباهنا لعدد كبير من القضايا وتُثير عدداً آخراً من التساؤلات الجديدة التي يصعب تجاهلها عند دراسة مسرحيات شكسبير. تدور بعض هذه التساؤلات حول كيفية استخدام المسرحيات لخدمة أغراض بعينها مثل: لماذا تختلف عروض المسرحيات؟ وما السبب وراء اختلاف الإنتاج السينمائي لنفس المسرحية؟ وقد تتناول تساؤلات أخرى قوة شكسبير الثقافية مثل: لماذا تعج الصحف البريطانية باقتباسات من مسرحياته؟ ولماذا تستخدم عبارات شكسبير كعناوين لروايات كثيرة مختلفة الأنواع؟ في حين نجد أن هناك تساؤلات أخرى تتناول طبعات المسرحيات مثل: هل يجب على دور النشر تحديث هجاء المسرحيات؟ أم يجب الاحتفاظ بالهجاء "الأصلي"؟ وبأي شيء نخاطر عند اختيارنا لهذا أو ذاك؟ ولماذا يفضل المعلم قراءتك لطبعة بعينها دون طبعة أخرى؟

أما ما يخص المسرحيات ذاتها فهناك عدد أكبر من التساؤلات والجوانب التي يمكن مناقشتها لذا تقترح سوزان ليتش Susan Leach في كتابها "شكسبير في قاعة الدراسة" Shakespeare in the Classroom بعض النقاط ليأخذها المعلمون بعين الاعتبار، أبرزها:

- لمن النفوذ والمنعة في المسرحية؟

- ما هو الأساس الاقتصادي للمسرحية؟
- هل حافظت الشخصية المحورية على سلطانها وأطاعتها بقية الشخوص، أم تحدتها وأزالت ملكها؟
- ما هو الإطار الفكري العام الذي تسير وفقه المسرحية؟
- هل من الممكن إصدار أحكام مباشرة على سلوك أي شخصية؟
- ما الدور الذي يلعبه الجنسين (الذكر والأنثى) في المسرحية؟
- كيف ظهرت الشخصيات النسائية في المسرحية؟

هناك حد فاصل بين تلك التساؤلات التي لا علاقة لها بعظمة شكسبير المبالغ فيها ولا بالقيم العالمية التي أضيفت على مسرحياته وبين مثلث (الحبكة– الشخوص–الموضوعات) القديم.

يؤدي بنا استكشاف كل تلك الآراء التي تتعلق بمحتوى ما نقرأ إلى نفس ما آلت إليه مناقشتنا لأسلوب قراءتنا –أعني رؤيتنا الذاتية للعالم من حولنا. فيثير التساؤل عن سبب دراسة شكسبير نقاط أخرى حول علاقة الفن بالسياسة أو الأدب بالتاريخ، وكذلك يتداخل مع موضوعات أخرى مهمة كالجنس الأدبي genre والقضايا المتعلقة بالجنس sexuality والطبقة الاجتماعية class والأصول العرقية ethnicity والهوية الوطنية national identity. ولا يفترض موقف الماديين الثقافيين بالضرورة عدم جدارة شكسبير بالدراسة أو أن القيم الفنية نسبية، على الرغم من معارضتهم للموقف التقليدي من شكسبير، فالأولى بالدراسة لديهم هو الشاعر والمسرحيات. وتجدر الإشارة هنا إلى صعوبة تجاهل شكسبير من المنظومة التعليمية لاستخدام كل الهيئات له مثل الحكومة ولجان الممتحنين ومعدي حلقات "درب النجوم"، لكن الأهم من افتراض عظمة شكسبير هو التفكير في كيفية تشييد

تلك العظمة والأهم من المسرحيات هو أسلوب نظرتنا لها، ومن هنا يستمر الجدل حول شكسبير لأن قلعته ما زالت تحت الحصار النقدي المستمر.

ملخص

Summary

• بات شكسبير بمثابة منظومة تعليمية ليس في الأدب فحسب بل وفي الحياة الثقافية البريطانية بأسرها فمن المستحيل تجنب دراسة مسرحياته.

• يرى "التقليديون" ضرورة دراسة شكسبير للقيمة الجمالية لأعماله والقيم الأخلاقية التي تسود الناس أجمعين ولأنها أعمال عالمية.

• يهتم "الماديون الثقافيون" أكثر بالطريقة التي ترتبط بها منظومة شكسبير بالسياسة والتاريخ فيرجعون سبب شهرته "كأفضل" الكُتَّاب للمصادفة التاريخية وأن القيم التي نراها في أعماله نابعة من أفكارنا وما نريده نحن من قراءة مسرحياته أو قيم كل من "استخدم" شكسبير لغرض شخصي وأن المسرحيات لا تحمل رسالة واحدة للبشرية جمعاء. ويجمع الماديون الثقافيون على استخدام اسم شكسبير كأداة ثقافية مهمة لإقناع الناس بمجموعة من الأفكار. لكن مهما تباين تحيزك لهؤلاء أم لأولئك فالمهم هو التركيز على أسلوب تناولك لأعمال شكسبير.